"أهميّةُ المُدْخَل التَّكَامُلي فِي تَعْلِيمِ اللُّغَةِ العربيّةِ لِتَلَامِيذِ المَرْحَلَةِ الابْتِدَائِيّةِ فِي ضَوْءِ مَنَاهِجِ الجِيلِ الثَّانِي."

غمام عمارة الأمين، طالب دكتوراه
إشراف الدّكتور: زعطوط حسين، أستاذ محاضر أ
مخبر: اللّسانيات النّصيّة و تحليل الخطاب
جامعة: قاصدي مرباح ـ ورقلة

الملخص:
تقدّمُ هذه الدّراسةُ وصفًا لأهميّة المُدخل التّكاملي في تعليم اللّغةِ العربية لتلاميذ المرحلة الابتدائية، والتّأكيد على أنّ مناهج الجيل الثاني قائمة على هذا المدخل، وذلك من أجل الوصول بتعليم اللغة العربية وتعلّمها نحو تحقيق غاياتها، وإتقان مهاراتها حتى تُبْنَى متماسكة لدى الأجيال، ولأجْلِ القضاء على الضّعف اللّغوي لدى المتعلّمين، ولإقناع المعلّمين بإحداث قطيعة جزئيّة مع ما مضى من الأساليب التفريعيّة؛ ليتجاوزوا المفهوم التقليدي لتعليم اللغة العربية.
الكلمات المفتاحية:
المدخل-التّكاملي- اللغة العربية-المرحلة الابتدائية-الجيل الثاني.

abstract
This study provides a description of the importance of the integrative approach in teaching Arabic language to primary school students. It emphasizes that the second generation program is based on this approach so that teaching of the Arabic language achieves its goals. To master their skills to be built coherently over generations,And to persuade teachers to make a partial break with the past methods of interpretation; to go beyond the traditional concept of teaching Arabic.
key words: Approach – Integrative – Arabic – Primary – Second Generation.

مقدمة:

يأخذُ التعليم في المرحلة الابتدائية مكانةً عظيمةً واهتمامًا واسعا لدى الدول والهيئات, لأنّه يُعْتبرُ اللَّبِنَةَ الأساسيّة في تكْوين الأدمغةِ والكفاءات, وتأخذ اللّغة العربية فيه مكانة بارزة ومتميّزةً؛ حيثُ أنّها تُعتبَرُ الرّكيزةَ الأساسيّة في بناء شخصيّة التلميذ فكريّا ونفسيّا واجتماعيّا، كما تُعتبَرُ الأساسَ للتحصيل في المواد الدراسية الأخرى. ولأهميّة اللغة العربية في تلك المرحلة؛ فقد أخَذَتْ حظّا وافِرًا من الخُطّة الدّراسية التي اعتمدتها المناهجُ التربوية بما يتناسب والأهداف والغايات والمرامي.

واللغةُ العربية كالإنسان تخضع للمتغيرات والمستجدات، وهي تضْعفُ بضعْفِ أبنائها، لذا كان من أوْلى الأوْلوياتِ معالجةُ مشكلاتِها، وإصلاحُها، وتنميةُ مهاراتها لدى أبنائها، لتحقيق أهدافها وغاياتها في ضوء المتغيرات الحالية للمجتمعات، ولن ترقي اللغة العربية إلا بتخطيط لغوي محكم لا يقلُّ أهميّةً عن التخطيط الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو العسكري، فمن مهام التخطيط اللغوي؛ تصميم المداخلِ التعليميةِ التي تعمل على توْجيهِ تَعَلُّم اللغة وتعلِيمها نحو تحقيق غاياتها، وقد تعدّدت هذه المداخل، ولكن برز منها ثلاثةُ مداخلَ، والتي كانت محطّ أنظار الكثير من المختصّين والمهتمّين، والتي اعتبروها المداخلَ الرئيسيّةَ والأنسبَ لتعليم اللغات ومنها اللغة العربية، وهي المدخل الاتصالي، والمدخل التكاملي، والمدخل الوظيفي.

وإنّ أخطر ما يهدّد انتشار اللغة العربية ويقف حائلا دون تحقيق أهدافها وغاياتها؛ هو اعتماد الأسلوب التّفريعي الذي يقوم على تفتيت الخبرة اللّغوية لدى المتعلمين، ويقدّم اللغة على أنّها موادُ مستقلةٌ عن بعضها البعض، ومهاراتٌ متفرقةٌ ومنفصلةٌ، وهو ما انتبهت إليه المناهج الحديثة، حيث أكّد الكثير من الدّراسين والمختصّين في تعليم اللغة العربية على فشل الأسلوب التفريعي، ووقع شبه إجماع منهم؛ أنّ الأسلوبَ الأنجع لتعليم اللغة العربية وتعلّمها -والذي يتوافق مع طبيعتها- يكون باعتماد المُدخل التّكاملي، فما مفهوم هذا المدخل؟ وفيم تتمثل أهميّته في تعليم اللغة العربية لتلاميذ المرحلة الابتدائية ؟ وأين تكمن تجلّياته وتطبيقاته التربوية في مناهج الجيل الثاني لتعليم اللغة العربية في المرحلة الابتدائية؟ وهذا ما سوف نعمل على توضيحه من خلال هذه الدراسة.

أولا: مفهوم المدخل التكاملي وأهميته

أ-مفهوم المدخل التكاملي:

يُعرّف هذا المُدخَل بأنّه "تنظيم للمنهج تزول منه الحواجز بين المواد الدراسية، وتقدم الخبرات المتفرقة في صورة متكاملة يدرك معها المتعلمون العلاقات بين

الخبرات"[1]، ويُعرّف أيضا بأنه " أسلوب لتنظيم عناصر الخبرة اللغوية المقدّمة للطّلاّب، وتدريسها بما يحقق ترابطها وتوحّدها بصورة تمكّنهم من إدراك العلاقات بينها، وتوظيفها في أدائهم اللغوي وذلك من خلال محتوى لغوي متكامل العناصر؛ ترتبط فيه توجيهات الممارسة والتدريبات اللغوية، والقواعد اللغوية بمهارات اللغة، ونوع الأداء المطلوب من خلال نص شعري أو نثري، أو موقف تعبيري شفهي أو تحريري، وتدريسها بطريقة تعتمد إجراءاتها على التكامل والممارسة والتدريب، وتقويم الطلاب أولا بأول."[2]

من خلال التعريفين يتبين أن المدْخل التّكاملي في تعليم اللغة يحمل بين طيّاته اتجاهاً عقلانياً لتعليم اللغة، فالمتعلّم يتعلّم اللغة بصورة أفضل إذا وقع التكامل بين موادها المختلفة، من قواعد النحو، والصرف، والأدب والبلاغة، والقراءة، والكتابة وغيرها، وتدرس هذه الفروع متكاملةً كوحدة واحدةٍ، فتحصل الخبرةُ اللغوية التي يُفترض أنْ يكْتَسِبَهَا المتعلّمُ متكامِلَةً، ويتمثَّلُ المهاراتِ اللغويةَ في تواصله مع الآخرين متكاملةً في مواقف الحياة الاجتماعية، فليس هناك استماع بمفرده، ولا حديث ولا قراءة ولا كتابة منعزلة عن الفن الآخر، حتى لا يُخْرِجَ اللّغة عن طبيعتها، ولا يتعلّمُها بعيدةً عن سياقها الاجتماعي الوظيفي.

والتّكاملُ يكون بين فروع اللّغة، ويكون أيضا "بربط منهج اللغة بمناهج المواد الأخرى مما يُحدث نوعا من الانسجام بين نوع المفردات وكميات ونوع التراكيب المقدمة في كتب اللغة وكتب المواد الأخرى"[3]، لأنّ تحصيل المواد الأخرى مرتبط بتحصيل اللغة، فاللغةُ هي الوسيلة الأساسيةُ في تعلّم العلوم، حيث يقول الدكتور حسني عبد الباري عصر في كتابه تعليم اللغة العربية في المرحلة الابتدائية: "والحاصل أنّ اللغة الإنسانية أساس لازم لكل المعارف الإنسانية، وللغة الصدارة على غيرها من المعرفة التي تعتمد على رموز اللغة من حيث كون هذه الرموز وسائل للتعبير، ومن حيث إنه لا يمكن لفرد ما التعبير عن معنى (معرفة) من المعاني، إمبريقيا كان أو جماليا، أو تاريخيا، أو غيره؛ من دون رموز اللغة التي هي المفتاح الأب لكل الرموز عداه"[4]، ولهذا فإن أي قواطع وفواصل وحدود بين اللغة العربية والمواد الدراسية الأخرى؛ يؤدي إلى الفصل بين الغاية ووسيلتها، كما يؤدي إلى فجوة كبيرة بين المفردات والتراكيب اللغوية الموجودة في المواد الدراسية واللغة العربية، مما يعرقل عملية التّحصيل والاستيعاب، كما تجدرُ الإشارة إلى ضرورة التنسيق التربوي بين معلم اللغة العربية ومعلمي المواد الأخرى، قصد تنمية المهارات اللغوية المختلفة، ولتحقيق التكامل أفقيا وعموديا، وحتى لا يُهدمَ مابناه معلّم اللغة العربية من قواعد ومهارات وقيم، فيقع المتعلّم في حيرة من أمره بين ما درسه في حصّة اللغة

العربية، وما سمعه في الحصص الأخرى، مما يحدث خلخلة لمكتسباته، وذا يؤثر سلبيا في مستوى التحصيل لديه، وقد صدق الشاعر إذْ قال:

مَتَى يَبْلُغُ الْبُنْيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ** إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ.

فاللغة بجميع فروعها وعناصرها وفنونها ومهاراتها وحدة متكاملة، حيث تمحى كل الفواصل و الحدود الوهمية التي تقسّم كيانها، حتى تحقق دورها الفعّال في الحياة.

ب-أهمية المدخل التكاملي:

إنّ توظيف المدخل التكاملي في تعليم اللغة العربية صار ضرورة، لما له من أثر فعّال في تحقيق الأهداف المرجوّة من تعليم وتعلّم اللغة العربية ، والربط بين مهاراتها الأربع (الاستماع، التحدث، القراءة، الكتابة)، والتوثيق بين فروعها وفنونها، من أجل بناء لغوي متماسك، ليكونَ تحصيلُ المتعلم متّزِنًا ومتكاملاً، فينمو نموا لغويّا سليمًا ومتعادلاً، لا تطغى فيه مهارة عن أخرى، ولا فنّ عن آخر، فالمتعلمُ ينتج اللغة متكاملة ويوظفها متكاملة، ليتعايش مع عصره الذي تكاملت فيه آفاق الثقافة والمعارف، وكثرت فيه المشكلات التي لا سبيل لمواجهتها إلا باستثمار المكتسبات متكاملة، لربط اللغة بمواقف الحياة المتعددة.

وبأضدادها تعرف الأشياء، لذلك تتّضحُ أهمية المدخل التكاملي بعد أنْ نقف على عيوبٍ ومآخذَ سلبيةٍ للمدخل التفريعي أو ما يسمى بمُدْخل التفتيت اللّغوي، والذي يحول دون تمكّن المتعلّم من اكتساب الممارسات اللغوية السّليمة، وذلك نتيجة لتفتيت الخبرة اللّغوية، وهذا حاصل بفعل تمزيق اللغة مما يفسد جوهرها، ويخرجها عن طبيعتها بحيث تقف عاجزة دون تحقيق غاياتها ومهاراتها، فيعجز المتعلّم حينها عن توظيفها في المواقف الاجتماعية التي لأجلها يتعلّمها، بل ويحدث عدم التوازن في اكتسابها نظرا لعدم إدراكه للعلاقات بين فروعها، وقد يحدث وأن يهتم بفرع دون آخر، مما يشكّل خطورةً على استخدام اللغة استخداما عمليّا، فتجد المتعلّم مثلا يهتم بالعلامات الإعرابية لأجل النطق الصحيح والسليم إلاّ في درس النحو والصرف، ويختار الصور الجميلة والتعابير المنمّقة إلاّ في درس الأدب، ولا يهتمّ بالخطّ الجميل مع رسم الكلمات رسماً صحيحاً إلاّ في درس الإملاء، وغيرها في باقي فروع اللغة، ممّا يحدث شرخًا في العملية التعليمية، وانفصاما بين النظرية والتطبيق، وتنافرا بين المعرفة والمهارة، وإبعاد المعرفة عن الحياة، وهذا خطر على اللغة ومتعلِّميها، فاللغة جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له البقية ضعفا تراجعا.

كما تكمن أيضا أهميّة المدخل التكاملي؛ بأَنّهُ يعترف بالفروق الفردية بين المتعلمين، فيقدّم لهم أنشطة تعليمية منوّعة، وبوسائل متنوعة، وأوجه تعلّم مختلفة، تمكّنهم من التعلّم الهادف في حدود إمكاناتهم وخبراتهم واستعداداتهم.

إنّ استخدام المنهج التكاملي في تعليم اللغة العربية له مبرراته، فهو يتوافق مع طبيعة اللغة المتكاملة، لذا فإنّ تعليمَ اللّغة العربية وتعلّمَها لا ينبغي أن يكون مخالفاً لطبيعة اللغةِ نفسِها، والتي تتكوّن من أنظمة لغوية متكاملة، وهي النّظام الصوتي، والنّظام الصرفي، والنظام النّحوي، والنّظام الدّلالي، بحيث لايمكن أن يؤدي كلٌّ منها غرضه ووظيفته منفصلا عن الآخر، فاللغة العربية كما يراها تمام حسان" مكونة من أنظمة لغوية هي النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي للغة. وحين نسمي أفكارا مركبة ما نظاما فلابد أن تكون بين بعضها وبعض علاقات عضوية معينة وكذلك أوجه خلاف بين كل واحدة منها وبين الأخرى بحيث تؤدي كل واحدة منها في النظام وظيفة تختلف عما تؤديه الأخرى. فللنظام إذا تكامل عضوي واكتمال وظيفي يجعله جامعا مانعا بحيث يصعب أن يستخرج منه شيئ أو أن يضاف إليه شيئ."[5]

فاللغةُ وحدةٌ متكاملةٌ، وينتجها الإنسان متكاملةً لتحقيق أغراضها، وعليه فإنّ توظيف معطيات المدخل التكاملي يتساير مع طبيعة اللغة، ويعطي المتعلّم فرصة لتعلّم اللغة بصورة متكاملة على نحو ما يمارسها في أدائه. إضافة إلى هذا المبرر للتكامل؛ هناك مبررات كثيرة "مما يدعم قبول المنهج التكاملي خصوصا في مقررات اللغة العربية والمواد الاجتماعية، ويجعل له قبولا الميزات التالية:

- النظرة إلى الحياة والكون على أنها وحدة متكاملة، توجد بين مكوناتها علاقات، وقوانين ضابطة.
- النظرة إلى طبيعة المادة العلمية، على أنها وحدة متكاملة، متداخلة، توجد بينها روابط وعلاقات قائمة ومتّصلة.
- ومعالجاته التربوية الواضحة المتمثلة في العناصر التالية:

1-معالجة مشكلات الحشو، والتكرار للخبرات التعليمية المقدمة للطلاب.
2-المساعدة على توظيف المفاهيم المقدمة للطلاب.
3-المساعدة على بقاء أثر التعليم.
4-المساعدة على ارتباط محتويات المادة العلمية بواقع التلاميذ
5-الاهتمام بالنشاط ومشاركة التلاميذ."[6]

- يتوافق مع عصر العولمة الذي تداخلت فيه المعارف وآفاق الثقافة العامة، بحيث يصعب فيه فصل فرع من العلوم عن باقي الفروع.
- يمكّن المتعلمين من التعرف على مشكلات مجتمعهم، لأنّ المناهج الدراسية ارتبطت ببيئتهم، ممّا يجعل المتعلم يُقبل على تعلّمها بشغف، لأنها تمثّل جزءً منه ومن ميولاته، فيتقبلها بإيجابية.
- إنّ ما تسعى إليه التربية الحديثة ربط المدرسة بالواقع، بحيث يواجه المتعلّم مشكلات في حياته، يحتاج في حلها لأكثر من فنّ ومعرفة ومادة دراسية، وهنا تبرز أهمية التكامل في المناهج مما يجعلها أكثر واقعية وارتباطا بالواقع المعيش.
- المناهج المتكاملة تعمل على رفع مستوى التحصيل لدى المتعلم، إذ يجد هذا الأخير نفسه مضطرّا لأن يطوّر نفسه في كثير من المجالات والتخصصات.
- المدخل التكاملي يؤدي إلى تكامل الخبرة، وشعور المتعلّم بأهميتها في حياته مما يوفّر الكثير من الجهد لدى المعلّمين.
- يحقّق العديد من الأهداف المعرفيّة والوجدانية والمهارية.

إنّ جميع هذه المبرّرات تتفق في غاية واحدة وهدف منشود، وهو تنمية معارف ومهارات الأفراد المتعلّمين في مؤسساتهم التّعليمية بطريقة متكاملة، وذلك بربط المدرسة بالواقع، وهذا ما تصبوا إليه التربية الحديثة، فالتّكامل يحقّق تعلّما فعّالا، تتوفّر فيه الرّغبة والتشوّق للتّعلّم، والمشاركة الفعّالة من قبل المتعلّمين, إذ أنّ هذا الأسلوب بمفهومه الحديث يقوم على التّعلّم من خلال العمل وإثارة الدّافعيّة للتّعلّم، واستخدام الخبرات السابقة متكاملة غير مفتتة.

ج- فكرة التكامل في تعليم اللغة العربية بين القُدماء والمحدثين:

ونظرا لأهمية المدخل التكاملي في تعليم اللغة العربية للناشئة، نجد "أن هناك دراسات قديمة في تراثنا اللغوي أسّست على التّكامل، فقد أدرك القدماء حقيقة تكامل اللغة، وهذا ما تؤكده مؤلفات عبد القاهر الجرجاني، والزمخشري، وابن جنّي، والمبرّد، وابن قتيبة، وابن خلدون، والسكاكي وغيرهم؛ حيث جاء تعاملهم مع اللغة من إدراك التكامل والترابط بين أجزاء القالب الأدبي، وإدراك العلاقات داخله."[7]

فالأسلوبُ المتّبعُ في تعليم اللغة عند القدامى؛ أن يُتّخذَ الموضوعُ أو النّصُّ -سواء كان قرآنا أو حديثا أو شعرا أو نثرا- محورا تدور حوله جميع الدراسات اللغوية، فيكون هو موضوع القراءة والنحو والتعبير والإملاء والبلاغة والدلالة وغيرها، فكان النّص محور كلّ شيء في الدراسات اللغوية والأدبية، فجميع فروع اللغة تخدم غرضا واحدا هو تحقيق النمو

اللغوي والأدبي للطلاب وتمكينهم من لغتهم تمكينا يقدرون معه على التعبير والفهم، وينتقلون من تعلّم اللغة إلى تعلّم التواصل باللغة.[8]

أمّا في العصر الحاضر؛ فقد برز الاهتمام بفكرة التّكامل في تعليم اللغة العربية منهجاً وطريقة بعد أن اقتنع التربويون بعدم جدوى تعليم اللغة وفق المدخل التفريعي، ورأوا أنّ المدخل التكاملي هو المُنقذ من هذه المعضلة، لذا فقد برز الاهتمام به في العصر الحاضر في تعليم اللغة العربية في كثير من الدول العربية والإسلامية، فقد ذكر أحمد عبده عوض في كتابه مداخل تعليم اللغة العربية دراسة مسحية نقدية، الكثير من المؤتمرات والبحوث والدراسات والمؤلفات التي عنيت بالمدخل التكاملي، من ذلك (مؤتمر الخرطوم، فبراير1976م) الذي كان من أهمّ توصياته -التي تهدف إلى تطوير تدريس اللغة العربية من خلال تحقيق التكامل- أن يكون النصّ محورا يرتبط به ما يمكن من موضوعات، وفي عام1983 استهدفت دراسة (أمال عبد ربه إبراهيم1983) معرفة أثر طريقة الوحدة على تحصيل تلاميذ الصف الأول بين البنين والبنات في التحصيل، مقارنة بتحصيلهم باستخدام الفروع المنفصلة، وتوصلت الدراسة إلى نجاح طريقة الوحدة، حيث كان التحصيل بها أعلى، ومنه أوصت بضرورة تدريس اللغة العربية بطريقة تساير طبيعة اللغة واستخدامها.[9]

والجزائر على غرار الكثير من الدول العربية والإسلامية؛ قد اهتمت بفكرة التكامل في تعليم اللغة العربية منهجا وطريقة، من خلال بناء المناهج الحديثة وفق المقاربة بالكفاءات، التي ترتكز أساسا على تكاملية أشكال المعرفة والخبرات والمهارات وتحقيق الحاجات التعليمية، كما تعمد إلى تحقيق الأهداف التعليمية انطلاقا من اعتبار المتعلّم ركناً رئيسا في العملية التعليمية، يحتاج إلى تكاملية مستمرة في عمليات تقويم أدائه ، وتقويم ما له علاقة بتعلّمه.

ثانيا: تجليات التكامل وتطبيقاته التربوية في مناهج الجيل الثاني لتعليم اللغة العربية في المرحلة الابتدائية:

انطلاقا من أهمية المدخل التكاملي في تعليم اللغة العربية، فقد كان حاضرا في مناهج الجيل الثاني [10]لتعليم اللغة العربية، حيث أنّ المحتويات التعليمية الحديثة خضعت في بنائها إلى عمليتين؛ هما الاختيار والتنظيم، وتعدّ عملية التّنظيم من أهم العمليات في بناء المناهج، حيث حدّد الخبراء معايير جعلوها شرطا لاتّصاف المحتوى التعليمي بالجودة؛ وهي التكامل والاستمرارية، والتتابع.

فالتكامل_في بناء هذه المناهج قام على أحدث ما توصّل إليه علم النفس التربوي؛ حيث صار المتعلّم محور العملية التعليمية التعلمية، والتعلّم قائم_في أساسه على نشاطه ودافعيّته للتعلّم، فالمتعلم لا يتعلّم إلاّ ما يمثّل حاجة لديه، ويشعر بفائدته وجدواه.

وتزداد أهمية المدخل التكاملي_في مناهج تعليم اللغة العربية_في المرحلة الابتدائية انطلاقا من أهمية هذه المرحلة_في حياة الإنسان التعليمية، حيثُ أنّ طريقة التفكير لدى الأطفال الصّغار لا تتجزّأ، فالتكامل يتوافق مع الخصائص النفسية والفكرية والبيولوجية للمتعلم_في هذه المرحلة، لذلك جاءت المناهج الجديدة "التي ترتكز من الجانب القيمي على تعزيز قيم الهوية والوطنية،...ومن الجانب الفلسفي على تيسير الانسجام العمودي والأفقي بين المواد."[11]، فالانسجام يقتضي التكامل بين فروع المادة الواحدة، وبين المواد الدراسية المختلفة لتحقيق الكفاءة العرضية، ولربط الخبرات التعليمية_في مجال معين بالخبرات التعليمية_في مجالات أخرى، حيث يتحقق التكامل "بربط موضوعات_في مرحلة دراسية بالموضوعات نفسها_في صفوف لاحقة أو سابقة، فمثلا قد تستخدم مفاهيم العلوم العامة_في مجال العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية، وقد يكون التكامل أفقيا بربط التاريخ بالجغرافيا، أو العلوم العامة بعلوم الحياة."[12]

ويتجلّى المدخل التكاملي_في مناهج الجيل الثاني لتعليم اللغة العربية_في المرحلة الابتدائية من خلال مقاربتين؛ هما المقاربة التواصلية، والمقاربة النّصية.

فالمقاربة التّواصليّة بهذا الاصطلاح، نجدها نادرة جدا_في مؤلفاتنا العربية ويرجع ذلك إلى تعدّد ترجمة هذا المصطلح، حيث لم يجمع الباحثون على مصطلح واحد، وكذلك كون المقاربة التّواصليّة اشتهرت_في ميدان تعليم اللغات لغير الناطقين بها، وهو ما أدّى إلى وروده بكثرة_في المؤلفات الأجنبية، وهناك من الباحثين من استخدم مصطلح "المدخل الاتصالي" بدل "المقاربة النصية"، من هؤلاء رشدي طعيمة_في كتابه المهارات اللغوية ويعلّل ذلك بقوله : "والذي نميل إليه هو إطلاق مصطلح " المدخل الاتصالي " على هذا الأسلوب فهو لم يتبلور بعد_في شكل طريقة محددة مثل طريقة النحو والترجمة، أو الطريقة المباشرة مثلا. فضلا عن أنّه يشتمل على مبادئ عامة ومنطلقات توجه أسلوب العمل_في أكثر من طريقة." [13] وإن تعدّدت المصطلحات؛ إلا أنها تتفق على الاهتمام باستخدام اللغة وممارسة أنشطتها من خلال إتاحة الفرصة للمتعلمين باستخدامها عمليا، والاهتمام بجميع مهاراتها بشكل متوازن بدل التركيز على حفظ قواعدها، بل المهمّ خلق الظروف المناسبة والمشابهة تماما للمواقف اللغوية خارج المدرسة.[14]

إنّ هذه المقاربة تُسهم في توسيع حقل اللّغة بممارسة ملموسة من أجل أهداف محددة، أبرزها تجاوز التمكّن من الكفاية اللغوية هدفا في حد ذاته؛ إلى الإبداع واستثمار النتاج اللساني، أي أنّ المناهج الحديثة تجاوزت الغاية من تعليم اللغة إلى تعليم التواصل باللغة ،بل تجاوزت تعليم اللغة واستخدامها لأغراض اتصالية، إلى تعليم اللغة من خلال الاتّصال الحقيقي، حتى تحقق اللغة أهدافها التواصلية كاملة والتي لأجلها كانت، فالعلاقة بين المعلم والمتعلم تجاوزت نقل المعلومات من مرسل ومستقبل، إلى تفاعل إنساني بكل وسائل الاتصال، مثل الكلام، وقسمات الوجه، والحركات والسكنات والإشارات، ونبرة الصوت، والكتابة، ولا يكون ذلك إلا بتوظيف المهارات اللغوية الأربعة متكاملة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ "المهارات اللغوية في المدخل الاتصالي تتكامل بين بعضها وبعض، ولا يعني التكامل هنا مجرّد ضمّ مهارة لأخرى...هذا مفهوم قاصر للتكامل. إنّ التكامل الحقيقي بين المهارات يعني الالتحام والتضامّ بين المهارات، يعني تشابكها بطريقة تؤدي إلى إنجاز المهمّة الاتصالية المطلوبة، وبأسلوب يجعلها تبدو من خلال الممارسة والسياق على أنها تستخدم بشكل طبيعي، ولتحقيق أهداف ذات معنى في حياة الفرد."[15]

ويفرّق رشدي أحمد طعيمة بين الكفاية اللغوية والاتصالية بقوله: " أنّ الكفاية اللغوية يقصد بها أنّ الفرد يعرف النظام الذي يحكم اللغة، ويطبّقه بدون انتباه أو تفكير واع به، كما أنّ لديه القدرة على التقاط المعاني اللغوية والعقلية والوجدانية والثقافية التي تصحب الأشكال اللغوية المختلفة. أمّا الكفاية الاتّصالية فنرى أنّها قدرة الفرد على استعمال اللغة بشكل تلقائي مع توفر حسّ لغوي يميز به الفرد بين الوظائف المختلفة للغة في مواقف الاستعمال الفعلي."[16] ولذا فقد تتوفر للفرد الكفاية اللغوية، ولا يستلزم ذلك تمكنه من الكفاية الاتصالية والتي تحتاج إلى حسّ لغوي، ولكن ليس من المعقول أن تكون الكفاية الاتصالية في غياب الكفاية اللغوية، لأن اللغة وسيلة التواصل، والعلاقة بين اللغة والتّواصل إلزامية، فحيثما وجدت اللغة كان التّواصل، فالكفاءة التّواصليّة اللغوية تكتسب من خلال التّواصل باللغة ضمن مواقف حية عديدة ومتنوعة، ولهذا فإن منهاج اللغة العربية للتعليم الابتدائي يؤكّد على أنّ تدريس اللغة العربية يهدف أساسا "إلى إكساب المتعلم أداة التواصل اليومي، وتعزيز رصيده اللّغوي الذي اكتسبه من محيطه الأسري والاجتماعي مع تهذيبه وتصحيحه...لذا فإن منهاج اللغة العربية في هذه المرحلة يركّز على التعبير الذي لم يأخذ مكانته اللائقة في المناهج السابقة، إلى جانب الاهتمام بالاستماع، نظرا لدوره الأساسي في هيكلة الفكر وصقل الشخصية، وكأساس يبنى عليه الفهم الذي يمثل مفتاح النفاذ في كل التعلّمات، وقاعدة لبناء كفاءة التّواصل."[17] ولا يغيب عن البال؛ أنّ التمكن

من التّعبير والبراعة في الكلام، والتنويع في الأساليب اللغوية تتطلب من المتعلم التزود بالثروة اللغوية والفكرية، ومعرفة قواعد اللغة، وهذا لا يتأتى له إلاّ بالاستماع للآخرين والاطلاع على نصوصهم، لأجل ذلك عمدت المدرسة الجزائرية إلى إجراء تعديلات على المناهج التربوية، فبعد أنّ كانت تغفل مهارتي الاستماع والتحدث وتركّز على التلقين والحفظ، أصبحت اليوم توليهما عناية كبيرة من خلال المقاطع التعليمية[18]، حيث نجد التعبير الشفوي في أغلب الأنشطة اللغوية، ففي كل مقطع تعليمي، تكون الحصة الأولى والثانية لميدان فهم المنطوق والتعبير الشفوي، والحصّة الثالثة لميدان التعبير الشفوي (انتاج شفوي)، وكلُّ حصة من هذه الثلاثة مدّتها –حسب المِنهاج– خمسٌ وأربعون دقيقة، وفي ميدان فهم المكتوب يكون التعبير الشفوي حاضرا أيضا، لأنّ المتعلّم سيجيب على الأسئلة شفويا، ويحلّل ويناقش ويستنبط ويقارن، وهذا كلّه شفويا. وكذلك في ميدان فهم المكتوب والتعبير الكتابي يكون التعبير الشفوي حاضرا، إذْ لا يمكن في جميع الأحوال أن يتمكّن المتعلّم من مهارة الكتابة في غياب تمكنه من مهارة الكلام، إذ أنّه من المسلّمات المعروفة؛ أنّ اللغة في الحقيقة ليست إلاّ الحديث الشفهي أو الكلام المنطوق، فاستعمال الأصوات اللغوية يسبق استعمال الرموز والكلمات كتابة، والتي تأتي بالدرجة الثانية، لتكون تجسيدا خطيّا للمعاني التي تعبّر عنها الأصواتُ المنطوقة شفاهة، ثمّ إنّ الهدف من استعمال اللغة الشفهية هو التّعبير عن الأفكار وتبادل المعلومات مع الآخرين، ومن هنا جاءت مناهج الجيل الثاني مركزة على التواصل من خلال تكثيف أنشطة التعبير في المقاطع التعليمية وفي الميادين الأربعة (فهم المنطوق، التعبير الشفوي، فهم المكتوب، التعبير الكتابي)، بل ركزت على أن تكون الكفاءة الشاملة لمرحلة التعليم الابتدائي هي التواصل ويكون بالتمكن من التعبير كتابيا و شفويا، حيث ورد في دليل استخدام كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي أنه "في نهاية مرحلة التعليم الابتدائي يتواصل التلميذ مشافهة وكتابة بلغة سليمة، ويقرأ قراءة معبّرة مسترسلة نصوصا مركبة ومختلفة الأنماط، تتكون من مائة وثلاثين إلى مائة وخمسين، مشكولة جزئيا، يفهمها وينتجها كتابة في وضعيات تواصلية دالة"[19]

وللتّدليل على ما ذهبنا إليه، فقد ورد في دليل استخدام كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي؛ نموذجا لسيرورة مقطع تعليمي، وهو المقطع الأول (القيم الإنسانية)، وفي ميدان فهم المنطوق والتعبير الشفوي؛ ومع النص المنطوق (صديقتي حورية)، يقرأ المعلّم النص المنطوق الآتي:"

صديقتي حورية

كانتْ صديقَتي حوريّةُ تُرافِقُني في ذهابي وإيابي إلى المدرسة، تحملُ حقيبتي المدرسية، وكلما طال بنا المسيرُ تأخذ بيدي مازحةً، لكنَّني كُنْتُ أشْعُر أنّهَا تريدُ أنْ تُعْفِينِي من جرِّ هذه العصا الخشبيّة، وما أدْري يومًا إلا وَقلْتُ لها دونَ مقدّمةٍ:

-حوريّة إنّنِي عرجاء. صَمَتَتْ فأَعَدْتُ عَلَيهَا:

-حُورية ألمْ تَسْمَعي إنَّنِي عَرْجَاءُ. فَالْتَفَتَتْ إليَّ متأثرةً:

-إنّني أعْلَم، وَمَاذَا بَعْدُ يارجاء؟

-كانَ بِوُسْعِكِ أَنْ تَسْخَرِي مِنّي مثْل الأخْريات، كأنْ تقولي : ذات الثلاثة أرْجل، أو...فقاطعتني بإشفاق أفاض الدمع من عيوني:

-لا، أنتِ أحسْنُ مِنْهُنّ...أنتِ مثالٌ للطْفِ والنُّبْلِ وحُسْنِ الخُلُقِ، وأكثَرُ منْ هَذا."[20]

وأثناء قراءة المعلّم لهذا النص، يجب التواصل البصري بينه وبين متعلّميه، مع الاستعانة بالأداء الحس حركي والقرائن اللغوية وغير اللغوية، لكيْ تصدُر من المتعلّم إشاراتٌ وإيحاءاتٌ تدلّ على اهتمامه بالموضوع ولتنمية مهارة الاستماع، ثم يطرح المعلّم أسئلة تتعلق بالنص المنطوق، لكي يجيب المتعلّم بجمل تامةٍ تُتَرْجمُ المعنى العام للنصّ، من هذه الأسئلة مثلا؛ عمّ يتحدّث النص؟ ماعنوانه؟ سمّ شخصيات النصّ الذي سمعته؟ ممّ تعاني حورية؟ لماذا تأخذ حورية بيد زميلتها؟ على ما تدل عبارة "ذات الثلاثة أرجل"؟ ماذا كان ردّ حورية على كلامها؟ هل توافقها الرأي؟

ثمّ في نهاية الحصة؛ وفي مرحلة التدريب والاستثمار يطلب المعلم من التلاميذ فتح الكتاب المدرسي ص09 ومشاهدة الصورة، (وهي عبارة عن صورة فتاتين؛ أحدهما تحمل محفظتين، والأخرى تعتمد على عصا في مشيتها)، لكي يشاهدوا ويعبّروا، ثم يطرح المعلّم أسئلة حول الصورة، وذلك من أجل بناء أفكار جديدة تدعم ما ورد في النصّ المنطوق، ولتنمية مهارة الكلام (التعبير الشفوي)، وفي ختام الحصة يُطْلبُ من المتعلّم حلّ التّمرين الأوّل من كراس الأنشطة، حيث يُكمل النّاقص من الحوار مسترجعا النص المنطوق، لتنمية مهارتي القراءة والكتابة.

. ففي هذا الميدان تحقّقت المقاربة التواصلية، التي هي مؤشر على التّكامل، وذلك باستخدام اللغة وممارسة أنشطتها من خلال إتاحة الفرصة للمتعلمين باستخدامها عمليا، عن طريق خلق الظروف المناسبة والمشابهة تماما للمواقف اللغوية خارج المدرسة، فالنص المنطوق (صديقتي حورية) نص مختار من واقع التلميذ ومن اهتماماته ومشابه لمواقفه اللغوية خارج المدرسة، ممّا يساعده على إلى الإبداع واستثمار النّتاج اللّساني في التعبير عمّا يجول بخاطِره من مشاعرَ وأحاسيسَ تجاه هذا الموقف الذي يعنيه، وتجاه هذه الوضعية

التي أَسَرَتْه، فهو يسمع، يعبّر شفويا، ثم يستثمر ما استوعبه في القراءة والتعبير الكتابي، فاللّغة تقوم على فنون أربعة وهي الاستماعُ والتحدّثُ والقراءةُ والكتابةُ، وهي أركان الاتصال اللغوي، فكلٌّ منها يُؤَثّر ويتأثّر بالفنون الأخرى، فالمستمعُ الجيّدُ هو بالضرورة متحدثٌ جيّدٌ، وقارئٌ جيّدٌ وكاتبٌ جيّدٌ، والقارئ الجيّدُ هو بالضّرورة متحدّثٌ جيّدٌ، فإذا تكاملت هذه الفنون تحقّقت الكفاية اللغوية والاتّصالية.

لذا يؤكّد الدكتور صالح بلعيد في كتابه دروس في اللسانيات التطبيقية؛ على ضرورة التركيز على النشاطات الأساسية للغة؛ والتي تتمثّل في التحدث والاستماع والقراءة والكتابة، من خلال تدريبهم عليها تدريبا واسعا ودقيقا ومثمرا وذلك عن طريق تنمية قدرة المتعلّم على التعبير والاتّصال شفاها وكتابة، وكلّ ما يقتضيه الاتّصال اليومي داخل محيطه، وذلك من أجل تحقيق الأهداف العامة لتعليم اللغة العربية.[21]

وانطلاقا من هذه النظرة إلى اللغة والتي تقوم على أساس التكامل بين فنونها، فقد تبنّت المنظومة الجزائرية منهج المقاربة بالكفاءات، وجعلت من النّص المحور الذي تدور حوله بقية الأنشطة وذلك بتطبيق مبدأ المقاربة النّصيّة؛ التي تجعل من نص القراءة المنطلق الرئيس لاكتساب المهارات اللغوية، فالمقاربة النصية هي "اختيار بيداغوجي يجسّد النّظر إلى اللغة باعتبارها نظاما ينبغي إدراكه في شموليته، حيث يتخذ النصّ محورا أساسيا تدور حوله جميع فروع اللغة، ويمثّل البنية الكبرى التي تظهر فيها كل المستويات اللغوية والصوتية والدلالية (المعجم اللغوي والدلالات الفكرية باعتبار النصّ يحمل ويبلّغُ رسالةً هادفةً) والنحوية والصرفية والأسلوبية وبهذا يصبح النصّ المنطوق أو المكتوب محور العملية التعليمية، ومن خلالهما تُنمَّى كفاءات ميادين اللغة الأربعة" [22].

كما تُعرّف المقاربةُ النّصيّةُ بأنّها " طريقة التعامل مع النّص وتحليله لأهداف تعليمية من خلال الأنشطة المتكاملة الثلاثة: التّعبير الشفهي، القراءة والكتابة، تجاوبا مع مقترحات المنهاج، لذلك سننطلق دائما من نصّ يتناول موضوعا من المواضيع المحددة حسب الوحدات، يمارس المتعلّمُ من خلاله التّعبير الشفوي والتّواصل في مرحلتي التمهيد والتدرب على مفاتيح القراءة، ويمارس القراءة والتّواصل الكتابي في مرحلة القراءة الفعلية وهذه المقاربة تساعد المتعلم على توظيف مكتسباته اللغوية بسهولة، والى جانب ذلك تسْمحُ له بتنويع أشكالِ التّعبير من السرد إلى الحوار إلى الإخبار إلى الوصف، مع تنويع المواضيع، انّطلاقا من تعريف المتعلّم بنفسه، إلى معرفة ما يحيط به في المنزل والمدرسة والشارع " [23].

فمناهج الجيل الثاني_في المرحلة الابتدائية اعتمدت هذه المقاربة، حيث أنه من نصّ القراءة ينطلق نشاط التعبير الشفوي والكتابي، والتراكيب النحوية والصيغ الصرفية، وبهذا يصبح النصّ محور العملية التعليمية، ومن خلاله تنمّى كفاءات ميادين اللغة الأربعة بشكل متكامل، ففي المقطع الأول من منهاج اللغة العربية للسنة الرابعة ابتدائي، نجد أنّ نشاط التراكيب النحوية (أنواع الكلمة)، ونشاط الصيغ الصرفية(الضمائر المنفصلة)، ونشاط التعبير الكتابي، كلّ ذلك يكون انطلاقا من نصّ القراءة (مع عصاي_في المدرسة).

إنّ المدخل التكاملي -وإن كانت جذوره_في الدّرس اللّغوي القديم- هو اليوم من المداخل الرئيسية_في تعليم اللغة العربية، نظرا لأهميته وبخاصّة_في المراحل التعليمية الأولى، وبحكم أنّني أستاذ؛ وقد دَرَسْتُ_في المرحلة الابتدائية بالنّظام القديم، ودرَّستُ_في المرحلة الابتدائية بالنظام الجديد، قد لاحظْتُ الفرق جليًّا_في الكفاية اللغوية والاتصالية لدى التلاميذ بين القديم والحديث، حيثُ أنّ تلاميذ المناهج الحديثةِ القائمة على التّكامل-وإن كانت لا تخلو من بعض الملاحظات والنّقص؛ كمشكلة الكثافة والزمن- لهم القدرة على التّواصل بطلاقة مع حسّ لغوي متميّز، مقارنة ما كنّا عليه نحن قديما، حيث أنّنَا نَحْفَظُ ونشْحَن ذاكرتنا لإرجاع ما حفظناه_في الامتحانات وفقط.

الخاتمة

وفي الأخير نخلص إلى ما يلي:

- إنّ المدخل التكاملي من المداخل الحديثة المهمّة_في تعليم اللغة العربية؛ لأنه بُنِي على أحدث ما توصّل إليه علم النفس التربوي، فهو يتوافق مع طبيعة اللغة والحياة والإنسان والكون والمعرفة، له أهميته ومبرراته ومزاياه؛ مما يجعله مدخلا رائدا_في تعليم اللغة العربية.
- إنّ مناهج الجيل الثاني للغة العربية_في المرحلة الابتدائية قائمةٌ عليه من خلال المقاربتين الاتصالية والنصيّة، فالأولى من خلال التّركيز على التعبير بشتى فنونه ومهاراته لتحقيق التواصل، ولا يكون ذلك إلا بتكامل جميع المهارات اللغوية والاتصالية، والثانية من خلال المقاطع التعليمية التي تجعل النصّ محورا أساسيا تدور حوله جميع فروع اللغة، ولا يمكن تصور المقاربتين من غير التّكامل الذي يتوافق وطبيعة اللغة ووظائفها.
- يجبُ ضرورةً على معلمي اللغة العربية وفي المرحلة الابتدائية على وجه الخصوص؛ أن يتمكّنوا من مفاهيم هذا المدخل، لكي يُستخدم استخداما سليما وفعّالا، وذلك لتطوير تدريس اللغة العربية، والقضاء على مظاهر الضعف اللغوي

لدى المتعلمين من جراء الأساليب التفريعية، وليقتنع به الكثيرون ممن يتباكون على أطلال النظام القديم، ولكي يقبلوا عليه بشغف ويتقبّلونَه بإيجابية، كما قال الشاعر: مَن رَام عزًّا فلا يبْكي على طللٍ***إنّ البُكَاء علاجٌ ليسَ بالشّافي.

- كما خَلصَتْ هذه الدّراسةُ إلى تعليلٍ منطقي يؤيد الإصلاحات التربوية التي اعتمدتها الجزائر مؤخّرا، والمتمثّلة في المقاربة بالكفاءات؛ حيثُ لها مبرّراتها العلمية والمنهجية والنفسية والاجتماعية، ملخّصة في ربط المدرسة بواقع التلميذ من خلال التكامل الأفقي والعمودي.

الهوامش والإحالات:

[1]- محمد رجب فضل الله: الاتجاهات المعاصرة في تدريس اللغة العربية، عالم الكتب، القاهرة-مصر، (ط1)، 1998، ص:28.

[2]- أحمد عبده عوض: مداخل تعليم اللغة العربية دراسة مسحية نقدية، سلسلة البحوث التربوية والنفسية، جامعة أم القرى، (ط1)، 2000، ص:21.

[3]- محمد رجب فضل الله: الاتجاهات المعاصرة في تدريس اللغة العربية، مرجع سابق، ص:29.

[4]- حسني عبد الباري عصر، تعليم اللغة العربية في المرحلة الابتدائية، الدار الجامعية، الاسكندرية-مصر، (دط)، 1997م، ص:107/106.

[5]- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء-المغرب، (دط)، 1994م، ص:312.

[6]- إيمان نواف أبو دحروج: فاعلية برنامج قائم على المنحنى التكاملي في تنمية بعض مهارات الكتابة لدى طالبات الصف الثالث الأساس بغزة، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف د. محمد سليمان أبو شقير، قسم المناهج وطرائق التدريس، كلية التربية، الجامعة الإسلامية-غزة، 2016م/1438ه، ص:24.

[7]- أحمد عبده عوض: مداخل تعليم اللغة العربية دراسة مسحية نقدية، مرجع سابق، ص:24.

[8]- يراجع: جودت الركابي: طرق تدريس اللغة العربية، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، (ط13)، 2014م، ص:27.

[9]- أحمد عبده عوض: مداخل تعليم اللغة العربية دراسة مسحية نقدية، مرجع سابق، ص:25/24.

[10]- يعدّ الجيل الثاني قفزة نوعية مقارنة بالجيل الأوّل, فالمناهج الجديدة تحدّد بالتدقيق المصطلحات وتحدّد المعارف والمهارات المطلوب بلوغها بالنسبة للتلميذ، كما تقحم هذا الأخير في العملية التربوية ليكون عنصرا فاعلا فيها, أما الأستاذ فيكون له دور التوجيه والتقويم باستعمال الطرق الحديثة في التدريس، وذلك من خلال اشتراك التلاميذ في إيجاد حلول للمشكلات المطروحة، يراجع: وزارة التربية الوطنية: دليل استخدام كتاب اللغة العربية للسنة الثالثة من التعليم الابتدائي, الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية, 2018/2017م, ص:08/07.

[11]- وزارة التربية الوطنية: دليل استخدام كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي, الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية , 2018/2017م, ص:6.

[12]- سهيلة محسن كاظم الفتلاوي: المنهاج التعليمي والتدريس الفاعل، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، (ط1)، 2006، ص:92.

[13]- رشدي أحمد طعيمة: المهارات اللغوية مستوياتها، تدريسها، صعوباتها، دار الفكر العربي، القاهرة – مصر، (ط1)، 1425ه/2004م، ص:170/ 171 .

[14]- يراجع: محمد رجب فضل الله: الاتجاهات المعاصرة في تدريس اللغة العربية، مرجع سابق، ص27.

[15]- رشدي أحمد طعيمة: المهارات اللغوية، مرجع سابق، ص:183/182.

[16]- المرجع نفسه، ص179.

[17]- وزارة التربية الوطنية: التعليم الابتدائي منهاج اللغة العربية، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، طبعة2016، ص:8.

[18]- المقطع التعلّمي هو مجموعة مرتّبة ومترابطة من الأنشطة والمهمّات، وقد تضمن كتاب اللغة العربيّة للسنة الرّابعة ابتدائي ثمانية مقاطع، يهتمّ كل مقطع بمحور من المحاور المقترحة في المنهاج معبّرة عن واقع ما يعيشه المتعلّم وتطلعات مجتمعه فهي مقاطع ذات دلالة وأبعاد إنسانية، اجتماعية، وطنية، بيئية، ثقافية، ويهتم كلّ مقطع ويروّج للرصيد اللّغوي والموارد المعرفية والمنهجية الخاصة بالمحور من خلال ميادين اللغة الأربعة وهي فهم المنطوق، التعبير الشفوي، فهم المكتوب، التعبير الكتابي، وينتهي كل مقطع بمشروع ونشاط الإدماج والتقويم، يراجع: وزارة التربية الوطنية: دليل استخدام كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي, مرجع سابق، ص:13.

[19]- وزارة التربية الوطنية: دليل استخدام كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي، مرجع سابق، ص:21.

[20]- المرجع نفسه، ص:49.

[21]- يراجع: صالح بالعيد: دروس في اللسانيات التطبيقية, دار هومة-الجزائر, (ط6)، 2011، ص:105.

[22]- وزارة التربية الوطنية: دليل استخدام كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي، مرجع سابق ص:10.

[23]- بوبكر حنيشان وآخرون: اللغة العربية – دليل المعلم – السنة الأولى من التعليم الابتدائي، منشورات الشهاب، الجزائر، (ط2)، 2004م، ص:5.